جنية البحر

للكاتب الفرنسي "جول لميتر"

بقلم السيد محمد العزاوي

احتبست الريح عنها إذ هي تحاذي الشاطئ من جزيرة « جن البحر » فلم يعد أحد يسمع للرياح عواء ولا عويلاً، أو يسمع للموج هديراً ولا هزيماً، أو يدرك في اليم عوجاً ولا أمتاً ؛ فهو الآن هادئ ساذر ، تتفجر الرهبة من جوانبه ، وتنبع الوحشة من نواحيه . وإذ رأى الركب ما رأى من عنت البحر وبأسه طوى الشراع للسارية ثم استكانوا

لقد كان أودسيوس وصحبه . فقد أحنقوا نبتيون الجبار ، فأرسل عليهم الرياح عذاباً فهي عاصفة قاصفة ، لا تبقي ولا تذر . وألب عليهم البحر عقاباً فهو تموس لا يستقيد ولا يلين . . لكم كان البحر لهم بلاء ، وأي بلاء ! وقد استعذبوها في سبيل راتيا كا !

واستمع أودسيوس لما نصحت به « سيرس » العاشقة ، فمجن الشمع ، وصبه في صماخيه حجاباً كثيفاً ، وفي آذان صحبه فهم صم لا يسمعون . وشده الرجال — كما أمر — إلى السارية بحبال غلاظ شداد ، ثم طفقوا يزيحون عن السفينة زبد البحر الغاضب

وكانت جنيات البحر يشهدن تقدم السفينة — من كهفهن — بصبر وشغف . حتى إذا مادخلت السفينة مجال السمع بدأن الغناء :

« أيها الناس هلموا ! فما مر بنا رجل إلا سحر الغناء لبه ، وألهب حسه، فانتقل إلى عالم الخلد مسروراً ، عالماً بما لم يكن يعلم في الحياة الأولى ... »

« نحن نعلم ما على الأرض جميعاً ، إن هي إلا أمنا ... ... »

ثم استوين جالسات على وصيد الكهف يلوحن بأيديهن فرحاً وطرباً ، مستبشرات بالقادمين النازلين ... أهلا وسهلا !

وكانت أصواتهن رقيقة ناعمة . يلفها ريح البحر المخم فيزيد من غموضها وجلالها ... يخالطها البحر بسحره وسلطانه فيجذب نحوها السامع كما تجذب النار الفراش ...

واصطرع أودسيوس على السارية بوثاقه . وطفق يجذبه وينحيه عنه في بأس وقوة ، ثم يدعو رجاله أن يفكوا وثاقه . ولكن الرجال أحكموا الوثاق ثانية ، وشدوه من جديد . وظن «أوفريون» — أحد أعوانه — أن ذلك الغناء الذي هز رب الحكمة والجد فصارع الأغلال من أجله — لابد أن يكون جميلا ساحراً وليس بكثير أن يموت المرء من أجله فانتزع الشمع عن صماخيه فسمع الغناء فاذا هو في لجة البحر وقاموس التبيج ، يصارع اليم المتدافع ويجالد الموج الهادر ... سابحاً إلى « السرينات الصادحات » . وحزن السفر لما رأوا ، وعز عليهم أن يتركوا أخاهم لليم صيداً أو للجنيات غنماً ؛ ولكن أودسيوس — من فوق — دعاهم بنظرة راجية أن واصلوا السير علنا نبرح المكان فننجو من بلاء عظيم

* * *

وسبح أوفريون بما أوتى من قوة العضل ، فقد كانت الرغبة الملحة تهتك صدره ، وتدفعه شهوة السماع فيسابق الريح إلى الصوت سبقاً

وكانت المياه اللامعة تدلف فى وهج الشمس ، آمنة إلى كهف بالشاطئ القريب ؛ والجنيات السبع قد اجتمعن على وصيده صادحات فرحات

وليس يخاف أن الجنيات غريبات التكوين ؛ فهن إلى ما يلى الخصور أبكار كواعب ، نحيلات الخصور ، مربعات الصدور . وهن طويلات النحور حور العيون ؛ يعلو الجبين منهن شعر غزير أصفر كأنه سبائك الذهب ... وكانت أسنانهن مشدودة منضدة فى أفواه واسعة ركبت فى وجوه بريئة ضاحكة كوجوه الأطفال . أما ما بعد الخصور فتكسوه حراشيف نابتة تعلوها فلوس لامعة . ويمكن للدانى منهن أن يرى أذيالهن — ذات الألوان الرائعة — تبصبص فى الماء تيهاً وعجباً

ولما اقترب منهن سكن الجوفلا غناء ولاصدى، ثم تواثبن عليه تواثب الذئاب على حمل وديع . وصحن صيحات العقبان المنقضة ؛ وجذبنه إلى داخل الكهف المعتم ، فنضون عنه الثياب ، ثم طرحنه على تل من عظام وجماجم ؛ إذ كان من دأب هؤلاء الجنيات أن يلتقطن من حطمت سفائنهم على شماف الصخور البارزة فى قاموس البحر ليتمصصن دماءهم بشفاههن اللمس المكتنزة

والآن تراءى لأوفريون أن إحداهن أقوى سحراً من أخواتها الأخر وأشد فتنة : فعيناها تشعان مالا تشع عيون أخواتها من حنان وعطف فولاها وجهه ثم قال :

— إنى لأموت سعيداً بعد أن سمعت ما أطربنى من غناء عرائس البحر الحسان . ولكن لن يتم لى سعد أو تطيب لى نفس إلا أن أموت على يديك أنت من دون أخواتك جمعاء !

فجحظت عينا الغانية من دهشة واستغراب ، منكرة عليه ثبات جنانه وهدوء نفسه ، إذ لم تعتد أن تري وجهاً من وجوه ضحاياها الكثر يعبر عن الرغبة ويعرب عن العزم مثلما عبر هذا وأعرب . لقد كانت عيون ضحاياها لا تشف إلا عن فزع ورعب مميت . إلا حين ينهكها التعب فهي شاخصة لا تطرف ، أو يعميها الهول فهى جاحظة لا تبصر . فما لعيني هذا الرجل يلمع فيهما بريق العزم وضوء التفكير ؟

فاستدارت الجنية لأخواتها وقالت آمرة :

— تخلفن فان الغريب غنيمتى !

وأطاعتها الجنيات الأخر . فربما كان لها عليهن نفوذ وسطوة ، أو فى قلوبهن حب وحظوة . أو ربما كان ذلك جرياً على عرف تواضعن فى عليه قسمة الضحايا . فانفردت بالاغريقى تسائله عن اسمه وخبره فلما قص عليها منه ذكراً قالت :

— فديتك يا أوفريون ! لقد علقتك ! وما أظنها إلا المرة الأولى إذ أصرح فيها بالحب وأستشعر الهوي!

فسألها الاغريقى :

— وأنت ما اسمك يا عروس ؟

— ليكوسيا !

* * *

أما الجنيات الأخر فقد تركن المتحابين يعيشان فى سلام ودعة . ولعل ذلك كان جرياً على العرف الذى تواضعن عليه ، والذى لا نعلم من أمره شيئاً . وكان بداخل الكهف مرج خصيب نهيتو سطبع

من ماءٍ معين ؛ كان أوفريون يروى منه غلة الظمأ بعد أن يغتذى بلحم السمك السمين .

ولم تفارقه ليكوسيا بعد ذلك أبداً : فهما يسبحان حتى تكل سواعدها وتهن قواها . وهما الآن يسفح الموج وبعد حين على الأعراف ؛ وهما بجنب الشط طوراً وفى القاموس أطواراً . تضمه إلى صدرها بينا هما فى الوشل ، وتنفذ إلى صدره — بعد أن ترق شعاف الصخر الناتئة — فكأنها سهم مراش . حقا لقد كانا سعيدين تحت ضوء الشمس المشرقة . وكثيراً ماداعبا الحيتان فى عودتهما إلى الكهف الوقور .

وإذا جن الليل نامت الجنيات على الشاطىء تاركات أذيالهن فى الماء . أما أوفريون فكان ينام بالمرج فى أحضان ربة البحر ليكوسيا . ولم تكن أحضانها بذات دفء فيلتمس فيها ملاذاً من البرد ومأوى .

وكانا قليلا مايتحادثان . إذ لم تكن تلم ليكوسيا من الكلام إلا بما سمحت به إقامتها بشاطىء البحر الأبيض المتوسط . فهى تستطيع أن تسمى « السماء » و « البحر » و « الشمس » و « القمر » و « النجوم » كلا باسمه ؛ وأن تسمى الصخور قاطبة والسمك كافة . وهى تستطيع أن تقول إنى « أرى » و « أسمع » و « أعشق » ، وإنى « أريد » و « آمل » و « أفعل » . وكان هذا كل مالها من لغة .

وسألها أفريون يوماً « كيف تتفنين — حين سمعت غناء كن من الفلك المسرع — بعلم مالا يعلم البشر . فهل لك أن ترينيه يا ليكوسيا ؟ »

ولكنها أفهمته بأن ما ذهبن إليه فى أغانيهن باطل ، لايقصدن به إلا الكيد وإثارة التطلع فى النفوس .. وصحيح ماقالت ، فان الكلمات التى تغنين بها والتى يسمعها أوفريون صباح مساء — لم تكن تدل على شىء محدود ، بل كانت تثير فى النفس مايثيره جمال الشروق وجلال الغروب ؛ وكانت تستمد قوة السحر من حنان أصواتهن الذى يأسر القلب البشرى ويعطله من الحكمة والعزم وقد وضح ذلك لأفريون وضوحاً ..

ولم تكن ليكوسيا غافلة عن أحزان حبيبها العزيز ، فكانت تنعشه بقبلات حارة ، وكانت تلقفه إذ هو يغوص فى البحر إعياءً لأنها كانت أوفى منه قواماً وأبين عضلا . وقد تهيه ظهرها صهوة يمتطيها إذا كده النصب . ولكنها كانت تغبطه — إذا ما كانا فى المرج الخصيب — على جوارحه الماهرة التى لم يكن لها منها إلا ساعدان مجفاوان لايغنيانها كثيراً إذ هى تسايره ، وذيل يعوقها إذ هى تشائيه ، واستشعرت قصور عقلها وذكاء عقله ، وأحست فوق ذلك — بنقصها رغم الخلود ، وكماله رغم الفناء . لقد كانت تعلم أن عقله يعى مالا يعى عقلها من عوالم غريبة لاتعرف عنها قليلاً أو كثيراً ، فكانت تغبطه وتحسده لكل ذلك ثم ودت لو كانت بشراً سوياً .

وأخذ أوفريون على عاتقه أن يعلمها مالم تحط به ، ويهبها مما تجهل أفكاراً وصوراً . ولكنه تبين الفشل سريعاً . فقد كانت لاتستطيع أن تتصور مايقول أو تفقه له معنى . وكيف تفهم وهى تسمع ألفاظاً للمرة الأولى ! ثم كيف تفهم وهى لم تتخذ غير البحر مقاماً ومستقراً

وبدت له الحياة ثقيلة نوعاً : فقد زال عن ليكوسيا روعة الجديد وبهجته ، وتولى عنها سحر الغامض وجلاله . ثم ... ثم هى جنية لا تفنى

الانسى شيئاً ؛ فلا هو من أصلها ولا هى من طينته ولا هى واجدة فيه ما ترتجى ، ولا هو واجد لديها ما يشتهى ... وران على قلبه الحزن. ألن يأتى عليها دهر تدري فيه فتريحه ، أو تنقلب إنساً فتسعده وتعينه ؛ أو يأتى عليه حين ينقلب فيه إلى جنى فينسى آله وصحبه ، ويستريح من الجوى والحنين ؟

ولج به الحنين إلى الوطن فتبره تتبيراً ... ففى الليل بينا يهجع فى أحضان ربة البحر تسبيح أفكاره وراء البحر إلى عالم البشر . فيبصر بعين الخيال الواهم أنهاراً وغاباً ، وجنات وحقولا . ويبصر مدناً وخلقاً كثيراً .. ويرى الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام ، والراسيات على الشواطىء كالأطواد .. وينعطف بصره بغتة إلى المواخير غصت بالمربدين السكارى ... هم الآن فى شغل فكهون : أمامهم خمر عتيق لذة للشاربين ، تتهادى بينهم الغانيات النشاوى منثنيات ضاحكات مداعبات باسمات ؛ ينضدن على شعورهن اللامعة زهراً ناضراً وجيلا.. هن — دون شك — دقيقات الخصور ، ناضجات الأنوثة مثمرات الصدور ... مرهفات القوام ... رقيقات السواعد والأقدام ... و ... إلى آخر ما يصوره خيال المحروم

وحدث أن مرّ بالمكان فلك منكود جذبه سحر الصوت وترجيع الصدى فاستوى الفلك على صخور قريبة . وهرعت إليه الجنيات هادرات صاخبات . وانقضضن على ركبه — وقد أنشبن فيهم أنيابهن الغاطمة — يمتصصن دماءهم الزكية . وتخلفت ليكوسيا عن أخواتها فلم تشاركهن الغناء أو الغداء . وما كان ذلك ميلا عن الطبيعة أو عزوفاً عن الطعام ، ولكن مجاملة لأوفريون الحبيب . ولما علم أفريون بذلك حزن واستخذى . وأيقن أن الحب الذى مسّ قلبها عاجز أن يهبه الحنان خاصة تميزه . وأيقن — كذلك — أن العطف والحنان قد اختص بهما القلب البشرى دون العالمين

* * *

ليس بخاف أن جنيات البحر ينشقن الهواء فى البر والبحر على السواء . وقد سرت تلك الميزة إلى أفريون بعد أن هذبتها قوانين البشرية ، فهو يستطيع الصوم عن الهواء تحت الماء أكثر مما يستطيع غواص مجيد . وكان أحب اللهو إليه أن يغوص بقاع البحر بين مروج المرجان والعشب الجميل ، وأن يهيم بينها متعجباً لها ، فى حيرة من أمرها : أهى أزهار أم أحجار أم حيوان يشعر ويرى !

وقد عثر يوماً بقاع البحر على فلك محطم ووجد بين ألواحه ودسره صحافاً من ذهب وأوانى من خزف بديع . ووجد أكواباً وأباريق ، وقدراً من ذهب فى صندوق متين . وعثر على جواهر وقلائد ونطقاً من حرير ومرايا وأساور من فضة ثم عدة لوحات تحاكى الطبيعة الساحرة

واستعان على إخراجها ليكوسيا ، فكانت خير معين . وقد حلّى جيدها الناطل بقلادة وطفاء الذوائب والأهداب ؛ وذراعيها بأساور من فضة ، وطوق خصرها الدقيق بنطاق من حرير ، ثم ثبت فى يدها مرآة صافية

وملأ قلب ليكوسيا الفرح إذ ترى صورتها الجميلة فى مرآة صافية . وطفق أوفريون يفسر لها ما استعصى عليها فهمه ، وشرح لها ما تمثله اللوحات من مناظر الطبيعة . فبدأت ليكوسيا تفهم العالم الذى حاول أوفريون أن يهبها عنه فكرة ضحلة . لقد

ألفته عالماً غريباً جذابا . فقالت برنة الأسى ولهجة الحزن : « وددت لو فهمت ما فى الأرض جميعاً . ولكن لن تغنى الوادة ، فما أنا إلا ربة بحر قدر عليها نبتيون ألا تبرحه . » .

ودار بخلد أوفريون أن يستغل تلك الحسرة . فزين لها الرحيل إلى الأرض ، وحرضها على هجر اليم الصاخب إلى البر الوادع ... فهو يغريها بالوعود الخلابة والأمانى الباسمة ؛ وهو يحدثها عن أشجار وأطيار ، ورياض وبساتين — أنشأها له خياله الخالق . وهو أخيراً يقص عليها من أخبار الناس كل طريف ... وما ذلك إلا ليهرب من جزيرة « جن البحر » وينقلب إلى أهله مسروراً :

— لو تستطيعين السير معى ياليكوسيا لركبنا الموج إلى بلد يدعى « أثينا » لا يبعد عنا إلا سبح ثلاث ليلال .

— ولكنى لا أستطيع أن أعيش على البر ، أو أمضى زمناً .

— سوف أعينك على أمرك : فاذا كنا بالبلد الأمين سآتيك بعربة كاحدى ما أريتك فى اللوحات فتقلنا إلى حيث تهوين الذهاب . وسوف نحيا فى نعيم بما نحمل من ذهب وفير وخير كثير ...

ولم يبح لها بما يكن فؤاده من شتى الأمور ..

ولم يكن سبح ثلاث ليال بمعجز ربة البحر ، ولكنه كان على أوفريون بلاء عظيماً . وعلى أية حال فقد وصلا الأرض ؛ وهبطا شاطئاً غير ذى أهل ولا زرع . ولم تكن المدينة تبعد عنه طويلاً ، إذ كانت تتراءى على أبواب الأفق ، ولكن الطريق إليها كان وعراً متعباً . وطفق أوفريون يخصف على نفسه من ورق الشجر ما كساه كساء مقبولاً .

وسارته الجنية بيديها فرحة مرحة . ولكن السير مالبث أن آلمها ، وآذاها والحر مالبث أن خنق أنفاسها المتلاحقة المبهورة .. وسبقها أوفريون فى المسير فنادته :

— أوفريون ! إن الأرض صعب سيرها شديد حرها . وقد حملتك فاحملنى بدورك .

وما كان له أن يتخلى عنها فلا حبها يسمح ، ولا المروءة ترضى . فعاد وحملها فطوقته بزراعيها ، بينا ذيلها يثير خلفهما عثيراً وتراباً .

وتسابل العرق على وجهه المكدود ، وناء تحت حمله ، فوهت أعصابه وتمردت نفسه على ذلك المخلوق الذى يحمل ... وعجب لنفسه إذ يصطحبها ! فبالله ماذا يفعل بتلك السمكة الحنثى بين الناس ... ؟ ولم يكن منه إلا أن طرحها بعيداً عنه ، وعدا نحو المدينة مسرعاً . فأعولت ليكوسيا :

— أوفريون ! أوفريون الحبيب !

لقد كان التوسل يائساً حزيناً ، تحرك له قلب أوفريون فعاد وهو يقول :

— ألا فاصبرى يا ليكوسيا ! فانى عائد بعد حين بعربة تقلنا للمدينة

— لا ! لا ! إنى موقنة بأنك لن تعود ... إنك لم تعد تحبنى لأنى لا أحاكى الانس فى شىء . وما ذاك ذنبى ! ألا فاذكر نعمتى عليك يا أوفريون إذ أنت إلى اليوم حى ... أتريد بعد ذلك فنائى وموتى ! ؟ يالك من جحود ... ! آه لو تعلم عظيم التضحية ... إن الآلهة قد نضت عنى ثوب الخلد لأنى علقتك !

وضمت إليها يديها إذ تفيض الدموع من عينيها للمرة الأولى !

— أوفريون ! عطفاً على !

— عطفاً ؟ ! عطفاً ؟ ! ما نطقت بتلك الكلمة من قبل !

— ذلك لأنى لم « أقاس » حباً أو شقاء . إصغ إلى ! إنى موقنة بأنى حمل بؤودك ، إلا إذا استويت إنسانة تؤنسك وتؤسى جراحك . وما أجد عن

حالى هـذه حولا ... على أن ما رأيت من حالك أفزعنى وأرعبنى فلا يحزنك أمرى ... ولا تبتئس إذ أعود للبم مرة أخرى ، فأسير سيرتى الأولى مع أخواتى الفاسيات

— الفاسيات !! أنى لك تلك اللفظة الأخرى؟!

— واحسرتا ؟ لقد علمتنى أنت معناها !

ولم يعقب الرجل على ما قالت كلاماً . بل حملها بين ذراعيه وعاد إلى الشاطئ شديدى أسى كاسفى بال . وابتسمت له ليكوسيا من بين الدموع الواكفة فقادها الرجل إلى الشاطئ بلوعة الودع وجوى العاشق المشفق

— وداعاً يا صاحبى !

— آه ! لو وهبك الاله من لدنه أقداماً !

— حسن يا صاحبى ! فليس لى أقدام ، ولا أود أن يكون . فمالى بها من حاجة فى هذا البحر اللجى . سوف أنسى كل شىء أو أحاول .. وسوف أسير سيرتى الأولى . وإن قدر لى أن أذكرك بين الماء والسماء فيا لسعدى وهنائى ! ولكنى سأشفق على نفسى خشية أن يحطمها الهوى ... وسأشفق عليها مرة أخرى ... فما أشد خوفى أن أطرح بعد أن يسخط علىّ نبتيون الأعلى

وبكى أفريون بكاء مراً . وصاح بها :

— كونى كما شاء نبتيون الطاغية ! ولكن تعالى ! تعالى نكن كما شئنا وشاء لنا الهوى !

وما كان أفريون إلا أحمق وعجولا . وما منعه أن يأتى حماقته إلا « زبتيس » الوادعة ! وقالت لهما إذ تستوى فى جلال الآلهة :

— لقد سرنى أمركما وأطربنى ، وإنى لمعجبة بكما سوياً ، فأنت يا ليكوسيا قد أكرمت مثوى فارس سنديد ، ظاهر ولدى آخيلوس بن پيلوس إذ هو بنار الحرب صال . وأنت — يا أفريون — قد عطفت على إحدى فتياتى — ربة البحر ليكوسيا — وكنت من سؤلك قاب قوسين أو أدنى ... لقد أحب كل منكما أخاه وأعلى مقامه . وإنى بكما لفرحة طروب ؛ وإن لكما عندى أحسن الجزاء فالنساء فى واحد مما أرى ... أنا مستطيعة — ياليكوسيا — أن أمحو — قبل أن أسرحك — ما تخلف بقلبك من ذكر هذا الآدمى . وأنا — ياأفريون — زعيمة بأن أهبك هيئة الحوت مبقية لك على روحك الآدمى وعقلك ، كى تعيش مع ربة البحر رغداً سعيداً ... ولكنى أفضل أن أهبكما السعادة كما ترغبان ... والآن ياليكوسيا! أأنضو عنك ثوب الخلد ثم تعيشين فى دنياه إلى حين ؟

— يقيناً ! فما فى الخلد من غناء !

— لا شكر لك ولا أجر !

— آه! مولاتى! لأجل بك الصفح وأولى! كنت أتحدث عن نفسى !..

— لا تثريب عليك الآن . فانى أفهم ما تقولين جيداً . والآن ! أتصبحين آدمية ؟!

— نعم !

— إذن فكونى بشراً سويا !

ولمستها برحمها الرشيق فاذا هى امرأة تسعى .

— والآن يافتاتى ! أسرعى إلى تلك الراهبة فى ذلك الدير القريب واسأليها إزاراً وبرداً ثم سيرى خلف فتاك ولا تعصى له أمراً ...

وعقل الفرح لسانيهما، وعطل الذهول حواسهما فما استطاعا شكراً ولا سجوداً ...

وانفتل العاشقان .. وابتسمت لهما إذ يودعانها. ولكن ما أمر بسمتها .. إبسمة حزينة مشفقة! لقد خامرها الشك فيما وهبت من سعادة ونعمة.

السيد محمد العزابى